

حَفُوفُ النَّبِيِّ ﷺ

بين الإجلال والإخلال

- دمعة على حب النبي ﷺ
- محبة النبي ﷺ وتعظيمه
- اتباع النبي ﷺ في ضوء الوحيين
- حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي
- ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي وآثارها
- مظاهر الغلو في قصائد المديح النبوي
- قوادح عقديّة في بردة البوصيري
- عبد الله بن صالح الخضير
- عبد اللطيف بن محمد الحسن
- فيصل بن علي البعداني
- الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان الفوزان
- عبد الكريم الحمدان
- سليمان بن عبد العزيز الفريجي
- د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

دهمة علي بن حبان النخعي
صلى الله
عليه
وسلم

نظرات متأملة للواقع في حب النبي
صلى الله
عليه
وسلم

عبد الله بن صالح الخضير

دمعة على حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

عبد الله بن صالح الخضير

قلِّبْ عينيك في الملكوت ترَ الجمال بديعاً، وافتح قلبك لأسرار هذا الجمال ترَ الحياة ربيعاً، وخُضْ في معترك الحياة تكن لك الحياة جميعاً، واجمع لي قلبك أجمع لك عقلي، وامنحني يدك فإنني لأرجو أن أمنح لك حياة هادئة سعيدة بإذن الله، وافتح صدرك أملاًه دفئاً ومحبةً وصدقاً، كن معي لأكون لك وكما تحب .

وأعطني دمعةً تحيي بها قلبك، وتسلي بها نفسك، فدموعنا مداد للفكر، وعبرتنا ثباتٌ على المبدأ، وبكاؤنا دوامٌ على النهج والمنهج، قلوبنا أهديناها بالحب إلى غير محب ففقدنا أعزَّ ما نملك، وإذا بنا نتحسس أماكنها وقد توهمنا وجودها، إننا بحاجة إلى أن نحب ولكن لا نغلو، ونهوى ولكن لا نفرط، ونعشق ولكن بتعفف .

إن القلب هو الكنز الذي لا يقرؤه إلا من يملكه، وإن راحة الضمير أنوارٌ تتلألأ في الغلَس، وينابيع متفجرة في الصحارى، وكنوز داخل البيوت المهجورة، كم من الوقت ضاع لأجل الحب وفي دوامته؟ وكم من العقول ذهبت لأجل الحب وفي دائرته؟ ونغرق يومنا في أبجديات الحب!! فمحب يعيش بين الذكرى والنسيان، ومحب يتيه بين الوصل والحرمان، حبٌ يسعد في الاسم، ويُسقي في الرسم، جمالٌ في الصورة، وغموضٌ في الحقيقة .

الحب تاجٌ لكنه من حديد، وكنزٌ لكنه من تراب، ومعدنٌ لكنه من سراب، وأي حبٍ يدعى فإنه ناقصٌ إذ العلاقات بين الآدميين بنيت على المصالح - في الغالب - وإن تنوعت صور الجمال أو تجملت الصور . وإن لكل فؤادٍ نزعاً حبٌ عذريةً تفيضُ بعذبِ الهوى وغميره، ولو اطَّلَعَ الناس على قلوب القساة لوجدوا

فيها أنهاراً متدفقة من الحب والرحمة، ولكنها تصب في أرض قيعان .
وإني أحمل راية بيضاء لبيض القلوب أن تتوجه بالحب إلى أصدق الحب
وأبقاه، وأبقى البر وأوفاه إلى

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت كحنين مغترب إلى الأوطان
إن الطيور وإن قصصت جناحها تسمو بهمتها إلى الطيران
لن أقول: «كانت الحياة قبل البعثة ظلاماً»؛ إذ لا يجهل ذلك أحد، ولن
أقول: «كان الظلم، ولم يكن غيره»؛ إذ لا أحد يشك في ذلك، ولن أقول:
«كان الحق للقوة»، و «كانت الحياة للرجل لا للمرأة»؛ إذ الناس أجمعوا على
ذلك، ولكنني أقول: مع البعثة وُلدت الحياة، وارتوى الناس بعد الظم:

مَا أَطَّلَ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرَّبِّيَ وَاخْضَرَ فِي الْبَسْتَانِ كُلِّ هَشِيمٍ
وكان من المبشرات بميلاد الحياة ما صادف المولد النبوي من إهلاك أصحاب
الفيل؛ فإنه بشرى بإهلاك الطاغوت والطغاة، وولادة لفجر العدالة والحياة، كما
أن في إهلاكهم اجتماعاً لكلمة قريش وتوحيدها، ولذا أنزل الله - تعالى - بعد
سورة الفيل سورة قريش، بياناً لسبب من أسباب إهلاك أصحاب الفيل وهو أنه
لتأثف قريش، ومن بعد ذلك كله ذكر قريشاً بنعمتين عظيمتين، أولاهما: أن
أطعمهم من جوع، وتمثل ذلك في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وثانيهما: أن
أمنهم من خوف، وهنا كلمة «خوف» جاءت نكرة دالة على العموم، فيدخل في
ذلك كل خوف ألم بهم فأمنوا منه، كما في قصة أصحاب الفيل وأبرهة الأشرم،
أو خوف يحدث لهم بعد ذلك ظاهراً كبعثة محمد ﷺ، وإنما هو رحمة وأمن
وأمان لهم ظاهراً وباطناً، حينما يظهره الله - تعالى - كما أهلك الله أصحاب الفيل
لكي تتعلق القلوب برب البيت الذي أهلك البغاة، وكيف يكون شكرهم له .

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

ومما كان ممهّداً ومقدّماً لدعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ : اجتماع النفوس على نصر المظلوم، وردّ الفضول على أهلها، وبه سمي الحلف، وفيه انتصار للعدالة، وإن كان ذلك على نطاق ضيق لكن: «لا شك أن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية»، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين؛ فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية»^(١).

وقد قال النبي ﷺ عن ذلك الحلف: «شهدت حلف المطيين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته»^(٢)، وسمّاه: المطيين؛ لأن العشائر التي عقدت حلف المطيين هي التي عقدت حلف الفضول، وإنما كان حلف المطيين قبل ميلاد محمد ﷺ بعد وفاة جده قصي^(٣).

ومن ذلك ما روى البخاري - رحمه الله - في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان يوم بُعث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلُؤُهُمْ، وقُتلت سُرُواتُهُمْ، وجُرِّحُوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»^(٤).

هذا على العموم وفي الظاهر. أما ما كان ممهّداً له ﷺ في ذاته فإن الخلوة والتعبّد من أهم سمات العظماء^(٥)، فإنه بعد ذلك ممتلئ بما فرغ نفسه له؛ فقد

(١) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري: ١١٢/١.

(٢) أخرجه أحمد برقم ١٦٥٥، وصححه أحمد شاكر، كما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني فيه برقم ٤٤١ / ٥٦٧، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٩٠٠.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري: ١١٢/١، وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث كما في المسند: ١٢٠/٣ مكتبة ابن تيمية.

(٤) البخاري، رقم ٣٧٧٧.

(٥) فائدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤٢٦/١٠): «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاووس: (نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه)، وإما في غير بيته».

قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء»^(١).

ومما كان مطمئناً له ﷺ قبل نزول الوحي الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح^(٢).

ومع بشريته ﷺ وإعلانه بإعلان القرآن لذلك، إلا أنه ذكر من المعجزات والآيات ما كان آية على علو منزلته، ورفيع قدره؛ فقد حدث ﷺ: أن حجراً كان يُسلم عليه قبل النبوة^(٣). فله ما أعظم هذا القائد، وما أصدقاه! فما عرفت مكة أميناً كأمانته ﷺ، فلما أظهره الله بالحق الذي معه لم يكن عندهم ظاهراً كذلك:

لَقَبْتُمُوهُ أَمِينَ الْقَوْمِ فِي صَغَرٍ وَمَا الْأَمِينَ عَلَى قَوْلٍ بِمَنْتُهُمْ
ولعلي أقف عند هذا الحد وأدخل فيما أردت من موضوع الحب لرسول ﷺ؛
فإن الحب أسمى العلاقات، ولعله أرقها، وإنما يبعث على كتابة مثل هذا الموضوع
قول الرسول الكريم ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(٤)، وأي سعادة تقارب تلك
السعادة في الحب؟ وأي نجاح في النهاية يوازي ذلك الحب؟ يقول ابن تيمية
- رحمه الله -: «وإنما ينفع العبدُ الحبُّ لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء
والصالحين؛ لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبتهم، وهؤلاء هم الذين يستحقون
محبة الله لهم»^(٥).

وإذا تعلق قلب العبد بالله أحب كل ما يقرب إلى الله ويزيده، ويبقى أنه أشد
حباً لله، فلا حب يوازي ذلك الحب، وإنما يحب بحب الله وله. قال ابن

(١) البخاري، رقم ٣، ومسلم، رقم ١٦٠، واللفظ له.

(٢) مسلم، رقم ٢٢٧٧.

(٣) البخاري، رقم ٦١٦٧، مسلم، رقم ٢٦٣٩.

(٤) الفتاوى: ١٠/٦١٠.

تيمية: «فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحبيته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك؛ فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم إذا كنت تحبهم لله؛ فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه؛ فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله»^(١).

وإن مما دعاني إلى كتابة هذه الأحرف ما أراه من تخلي القريب الأدنى عن سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتحليلهم بما يؤسف له من رموز الفكر والأدب في جميع أحاديثهم، وإن هذا نكس ونقص في الفطرة والتعليم، وإلا فقد قال - تعالى -: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

وما أراه من هجوم البعيد على سنة الكريم ﷺ وسيرته، مما تبثه وسائل الإعلام المختلفة تصريحاً وتلميحاً، ظاهراً وباطناً، والله المستعان.

«وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبيانات التي يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراها فيها؛ لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين: مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس»^(٢).

وحسبي إن أنا خضت في هذا الموضوع أن أنال محبة القوم، وحسبي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم:

(١) الفتاوى: ٦٠٨/١٠.

(٢) مجموعة العبقريات، لعباس العقاد، ص ١٠.

أسيرٌ خلف ركاب النُجُبِ ذا عرج مؤملاً كشف ما لاقيت من عوج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لربِّ الورى في ذاك من فرج
وإن بقيت بظهر الأرض منقطعاً فما على عرج في ذاك من حرج
واسمح لي أن انتقل وإياك إلى جيل تعيش معهم الأمن والسكينة بعد أن
ذقت من الدنيا خوفاً وهلعاً، ودعني أستل من قلبك خيطاً أبيض نلتمس به الصلة
بيننا وبينهم، وأعرني دمة تخفف بها الهوة بيننا وبين رسول الله ﷺ وتوقيره .
قال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: (ذكر عن مالك أنه سئل عن
أيوب السخثياني؟ فقال: «ما حدثكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه»^(١) . وقال
عنه مالك: «وحجّ حجّتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر
النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت
عنه»^(٢) .

وقال مصعب بن عبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني
حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقليل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت
لما أنكرتم عليّ ما ترون»، وذكر مالك عن محمد بن المنكدر- وكان سيد القراء-:
«لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه»^(٣)، ولقد كنت أرى جعفر
ابن محمد- وكان كثير الدعابة والتبسم- فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه، وما
رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما
كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن،
ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله . وكان
الحسن- رحمه الله- إذا ذكر حديث حنين الجذع وبكائه^(٤) يقول: «يا معشر

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٤ / ٦ .

(٢) المصدر السابق: ١٧ / ٦ .

(٣) حلية الأولياء: ١٤٧ / ٣، وسير أعلام النبلاء: ٣٥٤ / ٥، ٣٥٥ .

(٤) البخاري، رقم ٣٥٨٤ .

المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»^(١).

وكان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيفة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينه دموع: نرف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دموعها مدراراً ولقد رأيت الزهري - وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه^(٢).

وقال عمرو بن ميمون: «اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدث يوماً فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كربٌ، حتى رأيت العرق يتحدّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، ثم انتفخت أوداجه، وتربّد وجهه وتغرغرت عيناه»^(٣).

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يشبه برسول الله ﷺ، فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقاه وقبل بين عينيه، وأقطعه المرغاب، لشبهه صورة رسول الله ﷺ^(٤).

وإني سائل بعد تلك الصور المتحدثة: أين نحن من سيرتهم؟ وأين حالنا من

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٧٠، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ص ٥٧٢، مكتبة ابن تيمية.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض، ص ٥٩٨، بتصرف وإحالة.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٥٩٩.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٦١٠.

حالهم؟ وما أثر الحب عندنا؟ وما أثره عندهم؟ بل وما صدق ما ندعي؟ وما صدق ما لم يدعوه؟ وأين حقيقة ما ندعي؟ وما دلائل المحبة عندهم؟

لقد قام في قلوبهم ما قصرت هممنا عن أن تقوم بأقله، وأحيوا في شعورهم ما ماتت مشاعرنا دونه، وتعلقت أبصارهم فيما وراء الطرف، في حين لم تتجاوز أبصارنا أطرافنا، ألا رجل لم تقعد به همته ولم يتأخر به عمله؟! ألا صادق يترجم المحبة قولاً وعملاً وغيره؟! ألا فارس لا يرجع إلا بإحدى الحسينين؟!!

أيها المحبون: لقد تباعد بنا الزمن، واستنشرت الفتن، واشتغل الأكثرون بالحطام من المهن، غاب عنا الحب وإن ادعيناه، ونسينا الواجبات فكانت من أحاديث الذكريات، نتحدث عن السنة النبوية والهدي النبوي لكن لا ترى جاداً في الاتباع، ولا صادقاً في الكلام - إلا قليلاً -:

وكلُّ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاكا

مظاهر الجفاء مع النبي ﷺ:

ولمزيد من التوضيح فلنعرض أنفسنا على السنة المطهرة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولنعرض بعض المظاهر التي أحسب أنها كافية في إيضاح الجفاء الذي اتصف به بعضنا مع رسول الله ﷺ وسنته، لعل الله أن يزيد المهتدي هدىً، وأن يبدل الجافي إلفاً، والبعيد قرباً، والغالي قصداً.

١ - البعد عن السنة باطنياً وظاهراً:

يأتي في أول تلك المظاهر البعد عن السنة باطنياً؛ وذلك بتحول العبادات إلى عادات ونسيان احتساب الأجر من الله، أو ترك متابعة الرسول ﷺ وتعظيمه، والمحبة القلبية الخالصة له، ونسيان السنن وعدم تعلمها، أو البحث عنها، وعدم توقير السنة، والاستخفاف بها باطنياً.

ومن ذلك أيضاً: البعد عن السنة ظاهراً؛ وذلك بترك العمل بالسنن الظاهرة الواجب منها والمندوب، وعلى سبيل المثال سنن الاعتقاد ومجانبة البدعة وأهلها بل وهجرهم، أو السنن المؤكدة مثل: سنن الأكل، واللباس، أو الرواتب، أو الوتر،

أو ركعتي الضحى، وسنن المناسك في الحج والعمرة، والسنن المتعلقة بالصوم في الزمان والمكان، فصارت السنّة عند بعض الناس كالفضلة - والله المستعان -.

ولعمر الله لا يستقيم قلب العبد حقيقة حتى يعظّم السنّة ويحتاط لها، ويعمل بها. هذا وقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» كما في الصحيحين^(١)، وكان كلامه هذا ﷺ في أمر الزواج وأكل اللحم ونحوهما.

وقد قال أبي بن كعب - رضي الله عنه -: «عليكم بالسبيل والسنّة؛ فإنه ما من عبد على السبيل والسنّة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياهما كما يتحاتُّ الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنّة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيل وسنّة خير من اجتهاد فيما خلاف سبيل وسنّة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وستّهم»^(٢).

٢ - ردُّ الأحاديث الصحيحة:

ومما يلاحظ من الجفاء رد بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة بأدنى حجة من الحجج، كمخالفة العقل أو عدم تمثيلها مع الواقع، أو عدم إمكان العمل بها، أو المكابرة في قبول الأحاديث، وتأويل النصوص وحرفها لأجل ذلك، أو رد الأحاديث الصحيحة باعتبار أنها آحاد، - وأغلب أحكام الشريعة إنما جاءت من طريق الآحاد -، أو دعوى العمل بالقرآن وحده، وترك ما سوى ذلك، وقد قال ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكثراً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري؛ ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»^(٣).

(١) البخاري، رقم ٥٠٦٣، ومسلم، رقم ١٤٠١.

(٢) أبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٥٣، وابن الجوزي في تليس إبليس، ص ١٦.

(٣) الترمذي، رقم ٢٨٠٠، وأبو داود، رقم ٤٦٠٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم

وإن زعموا ما زعموا من وجوب وحدة المسلمين على القرآن وحده؛ فإن الله - تعالى - أوجب في القرآن الأخذ عن الرسول ﷺ كل ما أتى به جملة وتفصيلاً فقال - تعالى -: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. وقد ذكر الله - تعالى - طاعة الرسول ﷺ في القرآن في ثلاث وثلاثين موضعاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١).

قال الحميدي: «كنا عند الشافعي - رحمه الله - فأتاه رجل، فسأله في مسألة؟ فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! ترى على وسطي زئاراً؟! أقول لك: قضى فيها رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟!»^(٢). وقال مالك: «أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله؟!»^(٣).

ويقول - رحمه الله -: «سن رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق كتاب الله - عز وجل - واستكمال طاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»^(٤).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن الأدب معه ألا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، - نعم! هو مجهول، وعن الصواب معزول -، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد.

(١) أبو داود، رقم ٤٦٠٤، صححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٨٤٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣٤/١٠، وحلية الأولياء: ١٠٦/٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٩٩/٨، وشرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٥.

(٤) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، ص ٧.

فكان هذا من قلة الأدب معه ﷺ، بل هو عين الجرأة^(١).

دعوا كل قول عند قول محمدٍ فما آمن في دينه كمخاطر

٣- العدول عن سيرته ﷺ وسنته:

وفي عصر الإعلام يتجلى الجفاء في العدول عن سيرته ﷺ وسنته وواقعه وأعماله إلى رموز آخرين من عظماء الشرق والغرب - كما يسمون -، سواء كانوا في القيادة والسياسة، أو في الفكر والفلسفة، أو في الأدب والأخلاق. والأدهى من ذلك مقارنة أقوال هؤلاء ومقاربتها لأقوال النبي ﷺ وأحواله، وعرضها للعموم والعامية؛ وتلك مصيبة تهون على العوام التجني على سيرة المصطفى ﷺ وسنته، وتثير الشكوك في أقواله وأعماله التشريعية ﷺ والتي هي محض وحي: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]. لكن بعض الأذهان لا تتعلق إلا بالواقع المشاهد، واللحظة المعاصرة، فينبهرون بأولئك، وينسون العظمة التي عاشها النبي ﷺ للأحياء وللأموات، للحاضر وللمستقبل، بل للحياة وللموت.

أتطلبون من المختار معجزة يكفيه شعب من الأجداد أحياء

وقد سمى الله الكفر قبل الإيمان موتاً، والإيمان حياة، قال - تعالى -: ﴿أَوْ مَنْ

كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أخوك عيسى دعا مَيِّتاً فقام له وأنت أحييت أجيالاً من العدم

وأعماله ﷺ ما زالت وستظل قائمة بأعيانها متحدثة بعنوانها عن عظيم

وعظمة وحياته، ولا تحتاج إلى دليل وبيان:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ويلحق بذلك: تقديم أقوالهم على أقواله ﷺ، وأحوالهم على أحواله،

وأعمالهم على أعماله، ويا للأسف! من يقوم بمثل تلك الأعمال؟ إنهم رجال

العفن وفتنة من أهل الصحافة وبعض ساسة الإعلام والتعليم ممن تسودوا بغير

(١) مدارج السالكين: ٤٠٦/٢.

سيادة، وقادوا بغير قيادة!!

٤ - نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ :

وفي مجالسنا ومنتدياتنا يلاحظ المتأمل منا جفاءً روحانياً يتضح في نزع هيبة الكلام حين الحديث عن النبي ﷺ وكأنها حديث عابر، أو سيرة شاعر، أو قصة سائر، فلا أدب في الكلام، ولا توقير للحديث، ولا استشعار لهيبة الجلال النبوي، ولا ذوق للأدب النوراني القدسي، فلا مبالاة، ولا اهتمام، ولا توقير، ولا احترام، وقد قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [الحجرات: ٢]. هذا أيها الناس هو الأدب الرباني؛ فأين الأدب الإنساني قبل الأدب الإسلامي؟

كما نهى الله قوماً كانوا ينادونه باسمه: (يا محمد) كما ذكره كثير من المفسرين، فيسلب المنادي الشرف الذي تميز به رسول الله ﷺ وهو النبوة والرسالة، وهذا ليس على إطلاقه، لكنه أدب فتأمله.

«كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت؛ فلا يتحدث أحد، ولا يبرئ قلم، ولا يتسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة؛ فإذا رأى أحداً منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»^(١). ولعله بذلك يتأول الآيات الثلاث في أول سورة الحجرات؛ كما تأولها حماد بن زيد بهذا المعنى^(٢).

«وكان مالك - رحمه الله - أشد تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ، فكان إذا جلس للفقهاء جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً وتعمّم وقعد على منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويخير المجلس من أوله إلى فراغه تعظيماً للحديث»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠١/٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٦٠/٧.

(٣) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٩٦/١، والشفا لعياض: ٦٠١/٢.

ولذا حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على تعليم الناس تعظيم النبي ﷺ ميتاً كتعظيمه حياً، وذلك من تمام وفائه للنبي ﷺ. روى البخاري - رحمه الله - عن السائب بن يزيد، قال: «كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئت بهما، قال: من أنتما؟- أو: من أين أنتما؟- قالوا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ!!» (١).

٥ - هجر أهل السنة أو اغتيالهم والاستهزاء بهم:

ويلحق بالجفاء: جفاء القلوب والأعمال تجاه من خدموا السنة، ويتمثل ذلك في هجر أهل السنة والأثر العاملين بها، أو اغتيالهم ولمزهم والاستهزاء بهم واستنقاص أقدارهم، وانتقادهم وعبههم على التزامهم بالسنن ظاهراً وباطناً. ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب وتصور حالة الغربة والغرباء تجد قلتهم في هذا الزمن وغيره، وقد سبقنا إلى تصويرها ابن القيم حين قال:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكّم ولكننا سبي العدو؛ فهل تُرى نعود إلى أوطاننا ونسلم وفي وصف أهل السنة والأثر يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» (٢).

وعيرني الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها وهذا أحد السلف وهو الجنيد بن محمد يقول: «الطرق إلى الله - تعالى - كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته؛ فإن

(١) البخاري، رقم ٤٧٠.

(٢) البخاري، رقم ٣٦٤١، ومسلم، رقم ١٠٣٧.

طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه . كما قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] (١) .

أما من لم يدرك السنة والعمل بها فلا هم له إلا الكلام والملام .

أَقْلَبُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا بَيْكُمْ مِنْ اللُّومِ أَوْ سَدَّوْا الْمَكَانَ الَّذِي سَدَّوْا
وفي الحقيقة أن من تكلم فيهم لا يضر إلا نفسه :

كِنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا فَلَمْ يُضِرْهَا، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ
ولعل هذا أيضاً مما ينشر السنن بين الناس :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت؛ أتاح لها لسان حسود

٦ - هجر السنن المكانية :

ومن صور الجفاء الممض الذي طبقه الكثيرون - من غير استشعار للجفاء - :
هجر السنن المكانية، وشواهد هذا الجفاء في حياتنا كثيرة؛ فترى من الناس من
يحج كل عام ويعتمر في السنة أكثر من مرة، ومع ذلك تمر عليه سنوات كثيرة لم
يعرج فيها على المدينة النبوية إلا أقل من أصابع اليد الواحدة، وقد يعتب بعضهم
على أهل الآفاق أو الوافدين الذين لا يقدمون الديار المقدسة في العمر إلا مرة،
ويأتون المدينة فيصلون فيها ويغتمون أوقاتهم، وترى من أولئك الآفاقيين حرصاً
لا تكاد تجد بعضه عند سكان الجزيرة، بل يعتصر الإنسان أسى على أننا في هذه
الديار وقل من يهتم بالزيارة، وقد يزورها لكن على عجل وخوف من فوات
مصالح يظنها كذلك، وإن زارها فلا اهتمام بالسنن والشعائر، وهذا لعله من
النسيان والانشغال بغير السنن والبعد عن قراءة السيرة النبوية؛ فإن الإنسان بحمد
الله يجد من الأمن والأنس والطمأنينة القلبية في المدينة النبوية ما لا يجده في
غيرها إلا مكة :

(١) أبو نعيم في الحلية : ٢٥٧/١٠، وابن الجوزي في تلبس إبليس، ص ١٩ .

ويا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعده الحشر
وصلتك حتى قيل: لا يعرف القلى وزرتك حتى قيل: ليس له صبر
وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر
«وجدير لمواطن عمّرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل،
وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسييح،
واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ﷺ، وانتشر عنها من دين الله وسنة
رسول الله ﷺ مدارس آيات، ومساجد، وصلوات، ومشاهد الفضائل
والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومواقف سيد المرسلين ﷺ، ومتبواً
خاتم النبيين ﷺ»^(١) أن يُعتنى بها، وأن تحل في القلوب وتخالط بشاشتها، وأن
يكون في زيارتها ما يحدو إلى اتباع السنة وتعظيم نبي الأمة ﷺ.

* ومن السنن في المدينة: الصلاة في المسجد النبوي، وهي صلاة مضاعفة،
كما قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد
الحرام»^(٢).

* ومن السنن المكانية: الصلاة في مسجد قباء، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه
أسيد بن ظهير: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»^(٣).

وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: «لأن أصلي
في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، ولو يعلمون ما

(١) الشفالعياض: ٦٢٢/٢.

(٢) البخاري، رقم ١١٩، ومسلم، رقم ١٣٩٤.

(٣) الترمذي، رقم ٣٢٣، وابن ماجه، رقم ١٤١٤، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم
. ٢٦٧

في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل». قال الحافظ في الفتح: «إسناده صحيح»^(١). وهو محمول على إرادة سعد - رضي الله عنه - الترغيب في زيارته، لا على جواز شد الرحال إليه؛ فقد قال ﷺ: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى»^(٢). «فيستحب السفر إلى مسجده»^(٣).

* ومما نسي في المدينة من السنن المكانية: الصلاة في الروضة الشريفة، وهي من رياض الجنة التي ينبغي التنعم فيها والاعتناء بها؛ إذ هي من أماكن نزول الرحمة وحصول السعادة وأسبابها^(٤). وقد بين ذلك ﷺ بقوله: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»^(٥).

قال ابن حجر - بعد أن ذكر الأقوال في المراد بمعنى الروضة -: «والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها»^(٦).

ولكن المحروم من حرم الخير وصدف عن طريقه:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إننا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

* ويلحق بزيارة المدينة النبوية زيارة قبر النبي ﷺ والسلام عليه وعلى صاحبيه، رضي الله عنهما. وهل يُسلم على النبي ﷺ كلما دخل المسجد^(٧) ممن

(١) لمزيد من البحث في هذا الحديث وأسانيده وطرقه. انظر: أخبار المدينة النبوية لابن شبة، تعليق الشيخ عبد الله الدويش، ٤٣/١ - ٤٥. وانظر الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة/ صالح الرفاعي - رسالة دكتوراه، طبعة مجمع الملك فهد، ص ٥٣٤، ٥٣٦. وانظر تعليق ابن باز على فتح الباري: ٨٩-٨٥/٣.

(٢) البخاري، رقم ١١٨٩، ومسلم، رقم ١٣٩٧، واللفظ له.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٣٤/١.

(٤) انظر فتح الباري: ١٢٥/٤، مدارج السالكين لابن القيم، ٢٦٠/٣.

(٥) البخاري، رقم ١١٩٦، ومسلم، رقم ١٣٩١، وانظر فتح الباري: ٩٠/٣.

(٦) فتح الباري، ٥٨٠/١١.

(٧) وهو غير الدعاء عند دخول المسجد.

كان من أهل الآفاق؟ مسألة فيها خلاف^(١)؛ لكن شرف الزيارة والسلام والصلاة مما أجمع عليها المسلمون، وأن يزور قبور البقيع من الصحابة، وقبور الشهداء، وقبر حمزة- رضي الله عنهم-؛ لأن النبي ﷺ كان يزورهم ويدعو لهم، ولعموم الأحاديث في زيارة القبور^(٢)؛ وأن يدعو لهم، وأن يستشعر فضائلهم، ومناقبهم، وجهادهم، وأن يلين قلبه ويتذكر الآخرة لعل الله أن ينصر به دينه كما نصره بهم، وأن يجمعه بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والله المستعان^(٣).

والسنن المكانية لا تختص بالمدينة فقط، بل في غيرها، مثل مكة كالصلاة داخل «الحجر» لأنه من الكعبة، أو خلف المقام، أو ما يتعلق بالبقعة في غيرها من الأرض مما هو مشروعُ التعبد فيه مكاناً.

٧- عدم معرفة خصائص النبي ﷺ ومعجزاته:

ومن الجفاء مع النبي ﷺ علمياً وتربوياً عدم معرفة الخصائص والمعجزات التي خص الله بها نبيه محمداً ﷺ، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له المتعلمون قبل غيرهم، وينبغي مراعاة الفروق بين الخصائص والشمائل والمعجزات

(١) قال مالك- رحمه الله -: «وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء . . .»، قال أبو الوليد الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم- وهذا على أن السفر ليس لأجله أصلاً- وهنا يلاحظ أن الزيارة في أوقات الزحام ليست بلازمة. الفتاوى (١/٢٣١)، وانظر التحقيق والإيضاح لابن باز.

(٢) التحقيق والإيضاح لابن باز، الجزء الخامس، قسم الحج والعمرة: ٢٩٧/١.

(٣) ومما ينبغي ذكره قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن زيارة القبور على وجهين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية؛ فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصل على عليه صلاة الجنائز، فهذه الزيارة الشرعية.

والثاني: أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله- سبحانه- بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها». الفتاوى: ١/٢٣٦.

والكرامات ، وأن الكرامات هي ما يبارك الله في أصله مثل تكثير الطعام والاستسقاء ، أو ما يُحدثه الله - عز وجل - من الخوارق التي يعجز عنها الإنس والجن ؛ فيهيئها الله لعباده من غير قاعدة سابقة^(١) ، ولا تكون الكرامات إلا لمن استقام ظاهراً وباطناً على الطريق المستقيم ، وقد تجري لغيرهم لكن ليس على الدوام . أما المعجزات فلا تكون إلا للأنبياء للاستدلال بها والتحدي ، وهي على الدوام على بابها في التعجيز ، وليست من جنس الخوارق^(٢) . وأما الخصائص فهي الأحكام التي خص الله بها نبيه ﷺ مثل الجمع بين أكثر من أربع زوجات ، والقتال في الحرم المكي . والشمائل هي : الأخلاق الكريمة التي كانت محور حياة النبي ﷺ كالعفو والصفح والرحمة ولين الجانب .

٨ - الابتداء في الدين :

ويزداد الجفاء سوءاً حين يتعد المرء عن الجادة والشرع إلى سلوك الابتداء في الدين ومشابهة حالة المخلّطين من تعظيم مشايخ الطرق ورفعهم فوق منزلة الأنبياء بما معهم من الأحوال الشيطانية والخوارق الوهمية ، أو الغلو في الأولياء الذين يُظن أنهم كذلك ، وإطراؤهم في حياتهم وتقديسهم بعد مماتهم ، ودعاؤهم من دون الله ، والنذر لهم وذبح القرابين باسمهم ، والطواف حول قبورهم أو البناء عليها ، وهذا هو الشرك الذي بُعث النبي ﷺ لإزالته وهدمه وإقامة صرح التوحيد مكانه في الأرض وفي القلوب ، فأقام الله دينه ، ونصر عبده ، وأعز جنده المؤمنين ، وأقر الله أعينهم بإزالة علائم الشرك وأوثان الجاهلية حين كان النبي ﷺ يطعنها ويحطمها بيده وهو يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩] (٣) .

(١) انظر مجموع الفتاوى : ٣١١ / ١١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق التركي والأرناؤوط : ٧٤٦ / ٢ .

(٢) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ، ص ٥٩ فما بعدها .

(٣) البخاري ، رقم ٤٢٨٧ ، مسلم ، رقم ١٧٨١ .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولا يخفى على عاقل مهتد عقله بنور الشريعة أن الطواف حول القبور والأضرحة، والعكوف عندها وسؤال الموتى قضاء الحاجات، وشفاء المرضى، أو سؤال الله بهم، أو بجاههم مما أحدث في الدين، وأن الطواف الشرعي لا يكون إلا حول الكعبة، وأن النفع والضرر والشفاعة لله وحده، كما في القرآن والسنة والإجماع، وقد أبلغ ﷺ الوحي الذي نزل عليه من السماء - كما ورد في سورة الجن - مستجيباً لما أمر به : ﴿ قُلْ إِنْي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنْي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُنْتَحِدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ... ﴿ [الجن: ٢١ - ٢٣] ؛ وهو من هو ﷺ ؛ فكيف بغيره؟! وهذا هو الفرقان الذي يتميز به أهل الإيمان عن غيرهم، فكل من صرف تعظيماً للمخلوقين فإنما ينتقص من عظم الخالق تبارك وتعالى، وكل تذلل للمخلوقين فهو ضعف وجهل، وهذا باب من الذل لا يخفى .

٩ - الغلو في النبي ﷺ :

ومن الجفاء - الذي يؤذي النبي ﷺ ويخالف هديه ودعوته، بل يخالف الأصل الذي أرسله الله به وهو التوحيد - : الغلو في النبي ﷺ ورفع فوق منزلة النبوة وإشراكه في علم الغيب، أو سؤاله من دون الله، أو الإقسام به، وقد خاف النبي ﷺ وقوع ذلك فقال - في مرض موته - : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله» (١).

ومعلوم أن النصارى تعبد مع الله عيسى ويسمونه : (الابن)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ودعاء النبي ﷺ من دون الله عبادة له، والعبادة لا تصرف إلا لله وحده، وكذلك حذر النبي ﷺ أن يتخذ قبره عيداً ومزاراً؛ حيث قال :

(١) البخاري، رقم ٣٤٤٥.

«لا تجعلوا قبوري عيداً، وصلوا عليّ؛ فإن صلواتكم تبلغني حيث كنتم»^(١).

ويبلغ الحد في التنفير من الغلو في ذاته ﷺ أن لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢)، يُحذّر ما صنعوا.

ولما همّت طائفة من الناس بالغلو فيه فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. قال لهم ﷺ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان»^(٣).

ومن الغلو فيه ﷺ: الحلف والإقسام به؛ فإنه من التعظيم الذي لا يصرف إلا لله وحده، وقد قال ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(٤).

ومجموع الأحاديث في هذا الباب ميزان عدل لا ينبغي الزيادة عليها ولا النقص منها، وكل متجرد للحق يجد بغيته في تلك النصوص، والله وحده هو الموفق.

١٠ - ترك الصلاة عليه ﷺ :

ومن الجفاء أيضاً ترك الصلاة عليه ﷺ لفظاً أو خطأً. إذا مرّ ذكره. وهذا قد يحدث في بعض مجالسنا؛ فلا تسمع مصلياً عليه ﷺ فضلاً عن أن تسمع مذكراً بالصلاة والسلام عليه، وهذا على حد سواء في المجتمعات والأفراد. وأي بخل أقسى من هذا البخل؟ وبهذا الجفاء يقع الإنسان في أمورٍ لا تنفعه في آخرته ولا في دنياه، ومنها:

١ - دعاء النبي ﷺ بقوله: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ»^(٥).

(١) أبو داود بإسناد صحيح، رقم ٢٠٤٢، وصححه الألباني في غاية المرام ١٢٥.

(٢) البخاري، رقم ١٣٣٠، مسلم، رقم ٥٢٩.

(٣) صححه الألباني في غاية المرام ١٢٧، وانظر تخريجه فيه.

(٤) البخاري، رقم ٢٦٧٩، ومسلم، رقم ١٦٤٦.

(٥) رواه الترمذي، رقم ٣٥٤٥، وأحمد ٢/٢٥٤، وصححه الألباني في الإرواء: ٦.

٢- إدراك صفة البُخل التي أطلقها النبي ﷺ، حين قال: «البخيل: من ذُكرت عنده فلم يصلَّ عليَّ»^(١).

٣- فوات الصلاة المضاعفة من الله عليه: إذا لم يصلَّ على النبي ﷺ وآله وسلم؛ فقد قال ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»^(٢).

٤- ومنها فوات الصلاة من الله والملائكة لتركة الذكر النبوي، قال- تعالى:-
﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
[الأحزاب: ٤٣].

(فهذه الصلاة منه- تبارك وتعالى- ومن الملائكة، إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله- تبارك وتعالى- وملائكته وأخرجوا من الظلمات إلى النور، فأبي خير لم يحصل لهم؟! وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم! ماذا حُرِّموا من خيره وفضله؟ وباللَّهِ التوفيق)^(٣). كما أن في تركها وحشة القلب وفزعه لبعده عن الذكر؛ إذ كلما أكثر المرء من الذكر ازدادت الطمأنينة في قلبه، كما قال- تعالى:- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٥- فوات أثر الصلاة على النبي ﷺ على من لم يصلَّ عليه، كتفريج الهموم وغفران الذنوب.

وفي حكم الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره خلاف ليس هذا مكان بسطه^(٤)، لكن من كان أحب إليك من نفسك وأهلك ومالك فكيف أنت عند ذكره؟ أو

(١) الترمذي، رقم ٣٥٤٦، وأحمد: ٢٠١/١، وصححه الألباني في الإرواء: ٥.

(٢) مسلم، رقم ٢٨٤.

(٣) صحيح الوابل الصيب، ابن القيم، ص ١٣٤، تحقيق سليم الهلالي.

(٤) انظر الخلاف في هذه المسألة في (جلاء الأفهام)، لابن القيم ص ٥٤٠- ٥٥٨، تحقيق مشهور بن حسن سلمان.

كيف أنت في الثناء عليه؟ والدعاء له؟

خيالك في ذهني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي؛ فأين تغيب؟
ورحم الله الشافعي؛ إذ يقول: «يكره للرجل أن يقول: قال رسول الله،
ولكن يقول: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ تعظيماً لرسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم»^(١).

١١ - عدم معرفة قدر الصحابة:

ومن الجفاء ما يتقمصه الكثيرون على اختلاف في النيات، وتنوع في صور
الجفاء يجمعها عدم معرفة قدر الصحابة ومنازلهم وفضائلهم وهم الجيل الأغر،
حظ النبي ﷺ من الأجيال، وهو حظهم من الأنبياء، لهم شرف الصحبة كما لهم
نور الرؤية، ولذا تزخر كتب السنة المطهرة بأحاديث الفضائل والتعديل للأفراد
وللعموم، للمهاجرين والأنصار، وما حظنا منها إلا الفخر بذلك الجيل
الأشم، وفي آيات التنزيل الثناء والتفضيل، ومنها قوله - تعالى -: ﴿وَالسَّابِقُونَ
الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]،
﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ
نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا﴾
[الفتح: ١٠]، وفي آية أخرى يقول - تعالى -: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهِ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكيف بمن ترك ماله وولده بل خاطر بنفسه ليهاجر الهجرتين إلى الحبشة أو
يهاجر إلى المدينة مخلِّفاً حياة العز الظاهر في مكة؟ أيشكُّ بعدُ في إيمانه وصدقه
وإخلاصه؟

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام، ص ٢٥٥.

وقد ألمح الله - تعالى - إلى من خالف جماعة المسلمين وشذ عنهم وترك ما جاء به الرسول ﷺ أو أشار به أو ألمح إليه أو ما أقامه ﷺ مقامه فقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] .

وأما ما وقع بينهم من الخلاف فهم بشر ليسوا بمعصومين ، ومن نحن حتى نصب أنفسنا حكاماً ومعدلين لهم ؛ فلتسلم ألسنتنا كما تسلم قلوبنا ، وهذا هو المذهب الأسلم والأحكم ، ثم إن «القدر الذي ينكر من فعلهم قليل نزر مغمور» في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة ، وما من الله عليهم به من الفضائل ، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»^(١) .

كما ينبغي أن يعلم أن جمهور الصحابة ، وجمهور أفاضلهم لم يدخلوا في فتنة ، وقد ثبت بإسناد قال عنه ابن تيمية : «إنه من أصح إسناد على وجه الأرض» ، عن محمد بن سيرين قال : «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف ، فما حضرها منهم مائة ، بل لم يبلغوا ثلاثين»^(٢) . ولعل حسنة من أحدهم تعدل آلاف الحسنات من غيرهم ، كما في النص الآتي قريباً ، ولعل العاقل البصير المتجرد للحق - وللحق وحده - أن يدرك أن الله - عز وجل - لا يختار لصحبة نبيه وملازمته من كان مفسداً للدين مبغضاً للنبي ﷺ .

وقد سئل النصارى ف قيل لهم : مَنْ أفضلُ أهلِ ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى . وسئلت طائفة ممن تنتسب للمسلمين : مَنْ شرُّ أهلِ ملتكم؟ فقالوا:

(١) العقيدة الواسطية لابن تيمية ، ص ٢٠١ .

(٢) منهاج السنة : ٦ / ٢٣٦ .

أصحاب محمد ﷺ!! وطائفتان إحداهما لمزت مريم - عليها السلام - بالزنا، والأخرى لمزت عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - بالزنا؛ فتأمل رحمك الله كيف يجتمع الهوى والضلال في تلك الطائفتين!! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

ولك أن تنظر في الذب عن الصحابة حينما دخل عائذ بن عمرو على عبيد الله بن زياد - كما روى مسلم - فقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحطمة؛ فإياك أن تكون منهم»، فقال: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كان لهم أو فيهم نخالة، إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم»^(٢). وصدق - رضي الله عنه وأرضاه -:

أجد الملامة في هواك لذينة حبا لذكرك فليلمني اللوم

١٢ - الحساسية المفرطة حيال كل ما يتصل بتعظيم النبي ﷺ :

ويأتي في النهاية ما قد يكون السبب في التزام الجفاء والتقنع به وهو الحساسية المفرطة من بعض المنتسبين إلى السنة والجماعة حيال كل ما يتصل بتعظيم النبي ﷺ وتقديره وتعظيم أهل بيته الصالحين، سواء عند ذكره أو ذكرهم أو القصد إلى ذكره أو ذكرهم، خشية التشبه ببعض الطوائف، وهذا قصد في غير محله، وهذا التعظيم للنبي ﷺ لا يقصد به الخروج عن التعظيم الشرعي الوارد في الكتاب والسنة، ولا الاحتفال بالموالد، ولا التواجد عند السماع، أو التلذذ بالمدائح وحدها، وضابط ذلك التعظيم ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ومعرفة المحب الصادق من غيره في الاتباع، ومن إذا ذكرت له هدي رسول الله ﷺ امتثله، وانتهى عما أحدثه في الدين، ومن إذا ذكرت له السنة تركها واتبع هواه.

وقد يحتاج هذا الكلام - أعني الحساسية المفرطة - إلى توضيح بالمثال؛ فما

(١) البخاري، رقم ٣٦٧٣، ومسلم، رقم ٢٥٤١.

(٢) مسلم، رقم ١٨٣٠.

زلت أذكر أحد أهل العلم ممن له حضور في الساحة الدعوية، وكان كثير الصلاة والسلام على النبي ﷺ في دروسه ومحاضراته وأشعاره، فكان يُنتقد من بعض المتعلمين بسبب ذلك؟! وأين هم من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه -: «أجعل لك صلاتي كلها»^(١)، وقد يقول بعضهم: إن الجافي ترى عنده رقة في الدين وضعفاً في اليقين، بخلاف المحب الصادق؛ فإن عنده رقة للدين وقوة في اليقين. وماذا يضير الإنسان إذا كان مقتدياً بالسنة المطهرة أن يُصنّف أي تصنيف؟ أيلام المحب على محبة النبي ﷺ؟! أي شرف هذا الشرف؟ وأي عز هذا العز؟

ولئن نطقتُ بحبهم فلي في الصالحين قبلي سلف وقدوة:

لا بد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام
وعندها ينقل أقدامه إما إلى خلف وإما أمام

وليمثل القارئ الكريم بهذا العنوان الجميل لحياة المحب الصادق:

ومن عجب أنني أحن إليهم وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي
والزم - رعاك الله - الحق، وإن كنت وحدك؛ فلا بد من أنسٍ وإن طال
الطريق وكثر قطّاعه، والله وحده هو الهادي.

(١) رواه الترمذي وحسنه، رقم ٢٥٨٧، وأبو نعيم في الحلية: ٣٧٧/٨ وقال: غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم: ١٩٩٩، وفي الصحيحة برقم ٩٥٤.